الباب الأول

بيان اختلاف حال المخاطبين

تمهيد للباب

● إن بيان اختلاف حال المخاطبين في هذا العصر عن حال الآباء والأجداد ، مهم لنجاح الدعوة والدعاة . وهذا البيان يتطلب الخوض في مسائل فكرية وثقافية واجتماعية وسياسية متباينة ، لأن الاختلاف الذي وقع شمل كل هذه المجالات .

وعلى ضوء هذا البيان يستطيع الدعاة أن يمارسوا الدعوة ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ (يوسف:١٠٨) ، كما أراد الله تعالى لهذه الدعوة أن تسير على يدي نبينا محمد ﷺ وأيدي من اتبعه من المسلمين . وهكذا تظهر أهمية هذا المبحث للعيان . ولسوف نوفيه حقه من البحث بعون الله تعالى .

● لكن الخوض في مسائل فلسفية لا يعني أن الدعوة اختلطت بالفلسفة ، بل يعني أن الدعاة ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ يحتاجون إلى معرفة المذاهب الفلسفية الذائعة في عصرهم ، وخصوصاً تلك التي تزاحم الإسلام أو تعارضه أو تناقضه . وكذلك الخوض في مسائل سياسية ، لا يعني أن الدعوة اختلطت بالسياسة ، أو أن السياسة صارت باباً من أبواب «علم الدعوة» ، بل يعني أن على الدعاة الوقوف على التغيرات التي طرأت على أحوال بلادهم الإسلامية في المجالات السياسية ، لكي يتحركوا في دعوتهم ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ ولكي يتسلحوا بالمعارف اللازمة لمواجهة تلك التغيرات .

وهذا هو ما سأحاول عمله في هذا المبحث من هذه الدراسة . ولكن الوصف الكامل لكل الاختلافات بين حال المسلمين اليوم وحال الأجيال السابقة ، لا يمكن إتمامه في باب من كتاب ؛ إنه يحتاج إلى كتاب كامل . وأحسب أنه سيكون كتاباً كبيراً ، أو يتخذ موضوعاً لرسالة دكتوراه . وعلى الرغم من هذه الحقيقة أقول إن هذا الباب يضع يدي القارئ على الاختلافات الأساسية التي طرأت ، وعلى العوامل

التي أدت إليها إجمالاً ، وعلى الظروف التي تكفل لها البقاء ـ النافع منها والضار ، وعلى النتائج التي تمخضت عنها بعد قرون من بداية عهد الاستعمار الأوربي للعالم الإسلامي .

- وعلى كل داعية أن يدرس العلم أو الفن الذي يدعو من خلاله : فالمعلم يدرس علوم التربية ، والمحقق للتراث يدرس علم تحقيق التراث ، والمؤلف المسرحي يدرس أصول فن التأليف المسرحي ومدارسه ، والشاعر يدرس فن الشعر وقواعده ، وكاتب المقال يدرس قواعد كتابة المقال العلمي والأدبي ؛ ثم يسخر كل داعية علمه لصالح الدعوة الإسلامية . وهذه هي الدعوة ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ . هذا إلى جانب دراسة أحوال المخاطبين بطبيعة الحال ، فهذه الأحوال هي خصائص الحقل الذي يغرس فيه الدعاة عقائدهم الإسلامية .

* * *

الفصل الأول

آثار الاحتلال الأجنبي

سقوط البلاد المسلمة فريسة للاستعمار الأجنبي

● لأسباب عديدة تختلف من بلد إلى آخر ، سقط العالم الإسلامي فريسة للاستعمار الأجنبي :

فاحتلت إسبانيا الفلبين سنة ١٥٢١

واحتلت هولنده إندونيسيا سنة ١٦٠٦

وضمت روسيا «القرم» سنة ١٧٩٢

و كذلك ضمت روسيا أذربيجان سنة ١٨١٢

وارتبطت مشيخات الخليج ببريطانيا باتفاقيات سياسية سنة ١٨٢٠

واحتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠

واحتلت بريطانيا عدن سنة ١٨٣٤

وأُخضعت البحرين للحماية البريطانية سنة ١٨٦١

وأُعلن خضوع الهند (وباكستان جزء منها) للتاج البريطاني سنة ١٨٧٧

واحتلت فرنسا تونس سنة ١٨٨١

وغزت فرنسا مصر سنة ١٧٩٨ ثم أجليت عنها سنة ١٨٠١ ، ثم احتلتها بريطانيا سنة ١٨٨٢

وأعلنت بريطانيا حمايتها للكويت سنة ١٨٩٩

واحتلت بريطانيا السودان سنة ١٨٩٩

واحتلت بريطانيا نيجيريا سنة ١٩٠٣

ودخلت أفغانستان تحت النفوذ البريطاني سنة ١٩٠٧

واحتلت إيطاليا ليبيا سنة ١٩١١

واحتلت فرنسا مراكش سنة ١٩١٢

وغزت روسيا وبريطانيا إيران سنة ١٩١٥

وفرضت فرنسا انتدابها على سوريا ولبنان سنة ١٩٢٠

ووقعت فلسطين تحت الانتداب البريطاني سنة ١٩٢٠

واحتل الروس بلاد التتار سنة ١٩٣٩

واحتلت الصين تركستان الشرقية سنة ١٩٤٩

● لقد كان الإسلام هو السائد ـ ثقافة وحضارة ـ في العالم الإسلامي ، حتى سقطت البلاد المسلمة فريسة للاحتلال الإسباني والبرتغالي والبريطاني والفرنسي والهولندي والروسي والصيني والإيطالي . وبعد إحكام السيطرة على البلاد المسلمة شرع المستعمرون في تغيير النظم والشرائع والتقاليد ، وإحلال نظم وشرائع وتقاليد غير إسلامية محل نظائرها الإسلامية .

تغير أحوال المخاطبين في مصر

● ولنأخذ مصر كمثال فمنذ عام ١٧٩٨م حين غزا «بونابرت» مصر ، أخذت أحوال المخاطبين في مصر تتغير جذرياً . فمن جهة ، أحضر المستعمرون معهم ٣٠٠ امرأة ، كُنَّ بمثابة البذرة الخبيثة لنشر البغاء في القاهرة . ويقول المؤرخ الأمريكي «كريستوفر هيرولد» في كتابه «بونابرت في مصر» : «وأفلحت نساء أخريات تنكرن في زي جند في فرق أزواجهن في التسلل إلى الناقلات البحرية . وبلغ عدد النساء المرافقات للحملة جميعاً نحو ٣٠٠ امرأة . »[1]

---

(١) هيرولد ؛ ص ٣٨ ، ص ٢١٧ .

- وكان الحجاب قبل الغزو الفرنسي سمة عامة محترمة مرعية لدى جميع المصريات ، حتى النصرانيات واليهوديات ، ولم تُرَ امرأة سافرة إلا زوجات القناصل . »[١]

- وبعد ١٤ شهراً من الاحتلال تغيرت الأحوال في القاهرة تغيراً شنيعاً . ويصف «الجبرتي» المؤرخ المصري الشهير ذلك الانقلاب الشنيع ضمن أحداث سنة ١٢١٥هـ فيقول : « . . . ومنها تبرج النساء ، وخروج غالبهن عن الحشمة والحياء . وهو أنه لما حضر الفرنسيس إلى مصر ، ومع البعض منهم نساؤهم ، كانوا يمشون في الشوارع مع نسائهم ، وهن حاسرات الوجوه ، لابسات الفستانات والمناديل الحرير الملونة . . . ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقاً عنيفاً مع الضحك والقهقهة ، ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة . فمالت إليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش . »[٢]

- وسعى الفرنسيون إلى إصدار قوانين مدنية وجنائية لتحل محل الشريعة الإسلامية عن طريق ما يسمى «الديوان»[٣].

- وأما «مينو» القائد الذي خَلَفَ «بونابرت» في قيادة الفرنسيين فقد غير شريعة الميراث الإسلامية ، وعطل العقوبات الجنائية الإسلامية ، وأنشأ محاكم جنائية تحت إدارة المحتلين[٤].

● ولم تتوقف التغيرات بعد طرد الفرنسيين عام ١٨٠١م . فإن محمد علي الذي تولى الحكم سنة ١٨٠٥م اتبع سياسة إرسال البعثات إلى أوربا لتعلُّم الفنون الحربية الحديثة . وقد استخدم ضباطاً فرنسيين في أول محاولاته سنة ١٨٢٠م[٥]. وقد بلغ عدد المبعوثين في عهد محمد علي من سنة ١٨١٣م إلى سنة ١٨٤٧م ٣١٩ طالباً[٦].

---

(١) هيرولد ؛ ص ١٩٩

(٢) تاريخ الجبرتي ؛ جـ ٢ ص ٤٣٦

(٣) نفسه ؛ ص ٢٤٧

(٤) نفسه ؛ جـ ٢ ص ٥٠٩

(٥) عبدالرحمن الرافعي ؛ عصر محمد علي ؛ نشر دار المعارف ؛ ط ٤ سنة ١٩٨٢ ؛ ص ٣٢١-٣٧٧ .

(٦) نفسه ؛ ص ٤٠٩

- وعاد المبعوثون يحملون أفكاراً ثقافية مجافية للثقافة الإسلامية : مثل الفرعونية المنافية للأخوة الإسلامية . واشتهر رفاعة رافع الطهطاوي بحمل بذور الثقافة الفرنسية إلى التربة المصرية . وكذلك فعل خير الدين التونسي في كتابه : « أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك »[١].

وزعم إسماعيل خديوي مصر (١٨٦٣ - ١٨٧٩م) أن مصر أصبحت « قطعة من أوربا »[٢]. ولكنها في الحقيقة صارت مستعمرة ، غارقة في الديون!

تغير أحوال المخاطبين في تركيا

وتركيا مثال آخر وقد كان تغير أحوال المسلمين الأتراك أعمق وأخطر من أية تغيرات أخرى في أحوال المسلمين بسبب الاحتكاك الكثيف بأوربا ، وتكوين أحزاب علمانية قامت بدور الاحتلال الأجنبي . وأعلن السلطان محمود الثاني (١٧٨٤-١٨٣٩) رغبته في تحويل بلاده إلى قطعة من أوربا ، وكذلك فعل ابنه عبد المجيد من بعده (١٨٣٩-١٨٦١)[٣]. وفي إيجاز شديد ، هذه قائمة بتلك التغيرات التي فرضها أتاتورك ـ أول رئيس علماني لتركيا في العصر الحديث :

١- ألْغَى أتاتورك نَصاً في الدستور التركي يقرر أن دين الدولة الرسمي هو الإسلام.

٢- استبدل القوانين السويسرية بالشريعة الإسلامية [٤].

٣- فرض الفلسفة العلمانية التي تقول إنه : لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين ، متبعاً في ذلك دول أوربا العلمانية .

٤- فَرَضَ رفع الآذان باللغة التركية بدلاً من العربية .

٥- استبدل الحروف اللاتينية بالحروف العربية .

---

(١) دكتور محمد محمد حسين ؛ الإسلام والحضارة الغربية ؛ نشر المكتب الإسلامي ؛ بيروت ؛ ط ٢ سنة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م ؛ ص ٣٦

(٢) عبدالرحمن الرافعي ؛ عصر إسماعيل ؛ جـ ٢ ص ٨١

(٣) دكتور محمد محمد حسين ؛ الإسلام والحضارة الغربية ؛ ص ١٤

(٤) يلاحظ أن الباء تلحق بالمتروك

٦- فَرَضَ لبْس القبعة - وهي رمز مسيحي - على الأتراك بقانون ، وشنق الذين عارضوه من رجالات الإسلام .

٧- ألْغَى الخلافة سنة ١٩٢٤م ، وأعلن الجمهورية على النسق الأوربي .

- وخطورة هذه التغييرات في أحوال المسلمين الأتراك تتمثل في اتخاذها مثالاً يحتذى في البلاد الإسلامية الأخرى . وقد شُكلت في بلاد مسلمة عديدة أحزاب علمانية مثلما حدث في تركيا ، وأخذت تنادي بنقل التجربة التركية ، ونجح بعضها في استبدال القوانين الوضعية بالشريعة الإسلامية ، والحروف اللاتينية بالحروف العربية ، (كما حدث في إندونيسيا وماليزيا) ؛ وترددت مقولة : لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين ، وأعلن سياسيون عديدون أن أتاتورك هو مثلهم الأعلى ، ونقل كُتَّاب عرب كبار عبارات كُتَّاب أتراك بحروفها ، كقول محمود أسعد وزير العدل التركي إن القرآن شريعة الصحراء ، وهي المقولة التي رددها الدكتور زكي نجيب محمود كبير العلمانيين في مصر في النصف الثاني من القرن العشرين[1] .

● وقاومت الأمة التركية المسلمة ولا تزال تقاوم العلمانية ، وقد أفلحت في إحداث تغيير كبير في نوفمبر سنة ٢٠٠٢ حين فاز حزب العدالة الإسلامي بالأغلبية في المجلس النيابي ، وانفرد بالحكم لأول مرة في تاريخ تركيا الحديث الذي شهد حكومات ائتلافية بصفة دائمة .

وما حدث في مصر وفي تركيا من تغيرات حدث مثله أو قريباً منه في سوريا ولبنان وفلسطين والأردن ودول المغرب العربي ، وكذلك في الهند وباكستان وأفغانستان ، والدول الإفريقية المسلمة .

● ولا تتسع هذه الدراسة لوصف تلك التغيرات في كل الدول ولذلك أكتفي بحالتي مصر وتركيا كنماذج .

- ويمكن القول إن مجمل التغيرات التي حدثت اتخذت شكل « هجين » ثقافي . وهو عبارة عن خليط متضاد من عناصر إسلامية وأخرى علمانية . وآثاره في

---

(١) تجديد الفكر العربي ؛ ص ١٩٩

المجتمعات المسلمة مماثلة لآثاره في مصر وتركيا . فالتغيرات التي طرأت على المخاطبين المسلمين في تركيا ومصر طرأ مثلها أو قريباً منها على سائر الدول المسلمة وإن تأخر التغيير أو كان أعمق . ففي الجزائر ـ مثلاً ـ كان الاستعمار الفرنسي استيطانياً ، وزعم أن الجزائر جزء من فرنسا ، وأحل اللغة الفرنسية محل العربية ، الأمر الذي لا يزال يشكل معضلة عويصة للجزائريين . ويعاني الماليزيون ـ مثل الجزائريين ـ من معضلة اللغة الإنجليزية السائدة منذ عهد الاستعمار البريطاني ، ويجاهدون لإحلال لغتهم القومية محلها . وفي نيجيريا وبعض الدول الإفريقية تسود الإنجليزية ، لأنه لا توجد لغة قومية تصلح للتعبير عن الآداب والعلوم والفنون .

جهود المنصرين في تكوين الهجين الثقافي

● بعد السيطرة الإدارية والسياسية والاقتصادية والتربوية على البلاد أفسح الاستعمار المجالات أمام التنصير و حَمَاهُ ومَوَّلَهُ [1]. وقد بذل المنصرون جهوداً جبارة لتغيير عقائد المسلمين وأخلاقياتهم وتقاليدهم ، بُغْيَة تنصيرهم ، أو إخراجهم من الإسلام إلى الكفر إذا لم يتيسر إدخالهم في المسيحية . وبوسعنا أن نرى ضخامة تلك الجهود التي بُذلت منذ بداية القرن العشرين إلى الآن من خلال وثائق مؤتمر « أدنْبرج » للتنصير سنة ١٩١٠م . فهي تبيِّن أن :

- عدد المنصرين البروتستانت بلغ ٩٨٣٨٨ منصراً ،
- وكانت تدعمهم لجان بلغ عدد أعضائها ٥٥٠٠٠٠٠ عضواً ،
- وبلغ عدد مُوزعي الكتاب المقدس (عندهم) ٩٢٩١٣ موزعاً ، وقد أسهموا في الوعظ والتنصير ،
- وبلغ عدد المعاهد الكنسية ١٦٦٧١ معهداً ،
- وعدد إرساليات التنصير العامة ٣٤٧٨ إرسالية ،

---

(١) راجع : دكتور مصطفى خالدي ودكتور عمر فروخ ؛ التبشير والاستعمار في البلاد العربية ؛ ص١١٣ ، ص ١٤٤ .

- وعدد الإرساليات من الدرجة الثانية ٣٢٠٠٩ إرسالية ،
- وبلغ عدد التلاميذ ١١٠٦٠٢ تلميذاً ،
- وكانت تحت إدارتهم ٨١ مدرسة وكلية التحق بها ٧٩٩١ طالباً ،
- وكان عندهم ٤٨٩ مدرسة لتعليم اللاهوت وتخريج المنصرين ، التحق بها ١٢٥٤٣ طالباً ،
- وكانوا يديرون١٥٩٤ مدرسة ثانوية ، بلغ عدد تلاميذها ١٥٥٤٢٠ تلميذاً ،
- وكان عندهم ٢٨٩٠١ مدرسة ابتدائية بلغ عدد تلاميذها ١١٦٥٢١٢ تلميذاً ،
- وأدار المنصرون ١١٣ مدرسة رياض أطفال ، كان بها ٤٧٠٣ أطفال ،
- وأسست الإرساليات ٥٥٠ مستشفى و ١٠٢٤ صيدلية ،
- وكان لديها ١١١ مجلساً طبياً ، و٩٢ جمعية للممرضات ،
- وكان لديهم ٢٦٥ ملجأ للأيتام و٨٨ ملجأ للبرص و٢١ ملجأ للأطفال البرص ،
- وكان لديهم ٢٥ مدرسة للمكفوفين ،
- وأداروا ١١ معهداً للإسعاف ،
- كما أداروا ١٠٣ مستوصفات لمدمني الأفيون ،
- وأداروا ١٥ ملجأ للأرامل[١].

● هذه هي جيوشهم الثقافية الغازية سنة ١٩٠٢م. كانت جيوشاً للغزو الثقافي ، لا للتعليم ولا للطب ولا لرعاية الأيتام والأرامل والمرضى . وفي هذا يقول «هنري جِسَّب» أحد قادة المنصرين إن : «التعليم في الإرساليات إنما هو واسطة إلى غاية فقط ـ هذه الغاية هي قيادة الناس إلى المسيح وتعليمهم حتى يصبحوا أفراداً مسيحيين وشعوباً مسيحية»[٢].

---

(١) راجع كتاب : الغارة على العالم الإسلامي ؛ تأليف «إيه . لو شاتيليه» ؛ ترجمة محب الدين الخطيب ؛ ط ٤ ١٣٩٨ هـ المطبعة السلفية ومكتبتها ؛ ص ٤١،٤٢

(٢) التبشير والاستعمار ؛ ط ٥ ص ٦٦

● وقد نصَّروا أعداداً قليلة في البلاد العربية ، لكنهم نصروا أعداداً كبيرة من المسلمين في آسيا وإفريقيا . وتلك خسارة ضخمة لأمتنا الإسلامية .

أثر المدارس الأجنبية

● وإلى جانب المنصرين خَرَّجت المدارس الأجنبية كثيراً من أبناء المسلمين الذين فقدوا انتماءهم للإسلام وتعلقوا بالدولة التي درسوا لغتها : «ونال كثير منهم الحماية الأجنبية بواسطة القناصل ، فصاروا في حكم الأجانب في انتمائهم إلى الدول الأجنبية،وميولهم إليها،وعدم خضوعهم للنظم الأهلية القضائية والإدارية.»[1] وقد بلغ عدد المدارس الأجنبية في مصر في عهد الخديوي إسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩م) ٧٠ مدرسة .

● بهذه القوى الكبرى جرت المحاولات لإحلال المسيحية محل الإسلام ، والتشريع الوضعي محل الشريعة الإسلامية ، وفكرة الوطنية محل عقيدة الأخوة الإسلامية ، والأخلاق الأوربية محل أخلاق العفاف والستر وطرز العمارة والتقويم والعادات والتقاليد الأوربية محل نظائرها الإسلامية . وهكذا اختلفت أحوال المسلمين اختلافاً واسعاً عميقاً عن أحوال من سبقهم من الآباء والأجداد المسلمين الخُلَّص الذين لم تكدِّر عقائدهم وأخلاقياتهم بمثل هذه التغيرات ، الأمر الذي أنشأ بيئات معاكسة للدعوة الإسلامية ، بل رافضة لشريعة الإسلام وأخلاقياته .

أثر الاستشراق في تغير حال المخاطبين

● وواجهت الدعوة الإسلامية هجمات المستشرقين والكتاب العربيين . وهناك ميراث طويل عريض للاستشراق في العالم الإسلامي منذ العهد الاستعماري الذي كان يرعى نشاطهم ويموله .

● ويتصف معظم إنتاج المستشرقين بالتحامل على الإسلام ، وإن اتخذ شكل الدراسات الجادة . وأدى ذلك إلى إحداث تغيرات سلبية عديدة في الأوساط المسلمة .

---

(١) عبدالرحمن الرافعي ؛ عصر إسماعيل ؛ جـ ١ ص ٢٠٩

● فيقول المهتدي محمد أسد ـ رحمه الله : « قد لا تتقبل أوربا تعاليم الفلسفة البوذية أو الهندوكية ، ولكنها تحتفظ دائماً فيما يتعلق بهذين المذهبين بموقف عقلي متزن ومبني على التفكير ، إلا أنها حالما تتجه إلى الإسلام يختل التوازن ، ويأخذ الميل العاطفي بالتسرب ، حتى إن أبرز المستشرقين الأوربيين جعلوا من أنفسهم فريسة للتحزب غير العلمي في كتاباتهم عن الإسلام . » [1]

● ويعترف بعض المستشرقين بتحيزهم بدافع التعصب الديني ، وبتأثير المناخ الثقافي السائد الذي يعتبر الإسلام ديناً أدنى Islam is an inferior religion ، كما يقول « جِبْ »[2].

● وكان للاستشراق آثاره السلبية على الدعوة الإسلامية على المستوى الأكاديمي ، لأن بعض أساتذة الجامعات الحديثة آمنوا بأن المستشرقين نماذج رفيعة للدراسات العلمية ، ونشروا ذلك الإيمان بين الطلاب . واتخذ طلاب الدراسات العليا كتابات المستشرقين مراجع لدراساتهم العليا ، دون تمييز بين الغث والثمين .

● وواجه علماء المسلمين ذلك السَّيْل المنهمر من الكتابات الاستشراقية ، ومن الأفكار المنحرفة في رسائل الماجستير والدكتوراه في الجامعات الحديثة وآثارها السلبية العديدة على الفئات المثقفة من أبناء المسلمين .

التصدي للاستشراق

● أدرك المسلمون خطر الاستشراق على الأجيال الحديثة من أبناء المسلمين . وقد استطاع المنصرون منهم إخراج أعداد كبيرة من الإسلام وإدخالهم في المسيحية ، خصوصاً في آسيا وإفريقيا . واستطاع كثير من المستشرقين أن يشغلوا مناصب الأساتذة في الجامعات الحديثة في بعض بلاد العالم الإسلامي ليدرِّسوا عقائد

---

(١) محمد أسد ؛ الإسلام على مفترق الطرق ؛ ترجمة دكتور عمر فروخ ؛ ط ١ ص ١٥

(2) Gibb; Islam; the preface to the first edition; London 1978

الإسلام وشريعته وتاريخه ، ويشككوا أبناء المسلمين في قيمة كل ما هو إسلامي ويبخسوه حقه ، ويرفعوا من قيمة كل ما هو غربي أوربي وأمريكي ، ليكون اختيار الطلاب مضموناً لصالح الثقافة الغربية .

● وقد اعتبر الأستاذ المودودي أن إتاحة الفرص للمستشرقين ليحاضروا ويدرسوا لأبناء المسلمين في بلاد المسلمين لا تجوز بحال ، لأنه تناقض سافر[1]. وقد تصدى الأساتذة المسلمون للمستشرقين ، وفضحوا دعاواهم الزائفة . وربما كان أقوى رد على المستشرقين هو كتاب الدكتور عبد الرحمن بدوي : «دفاع القرآن ضد منتقديه»[2]. ومن أقوى الكتب التي فضحت ممارسات التنصير في العالم العربي كتاب : «التبشير والاستعمار في البلاد العربية» ، الذي ألّفه الدكتوران مصطفى خالدي وعمر فروخ [3] وبذلك انحسر نشاط الاستشراق والتنصير في العالم العربي ، وعُرف مستواهم العلمي الحقيقي ، الذي أَتْلَفَهُ التعصب والتحيز .

التفكك السياسي

ولعل من أسوأ التغيرات التي طرأت على العالم الإسلامي بتأثير الاحتلال الأجنبي والاحتكاك بالفكر القومي الأوربي ، ظاهرة التفكك السياسي .

إن «الوحدة» خاصية أساسية في شخصية الأمة المسلمة ؛ وعلى الرغم من ذلك ابتلي المسلمون بالتفكك السياسي . وقد كانت الخلافة العثمانية آخر شكل للوحدة السياسية الرابطة للشعوب المسلمة ، على الرغم من الفساد والمظالم والانحرافات الخطيرة التي حاقت بتلك الخلافة . وتحت تأثير الفكر الأوربي القومي ، أُلْغِيَ

---

(١) راجع كتابه : الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة ؛ تعريب خليل أحمد الحامدي ؛ نشر دار القلم ؛ ط ٣ ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م ؛ ص ٢٧٠-٢٧١

(٢) ترجمه عن الفرنسية الدكتور كمال جادالله ؛ دار الجيل بالقاهرة ؛ ١٩٩٧م . وهناك أيضاً كتب عديدة تصدت للاستشراق ، منها كتاب محمد قطب : المستشرقون والإسلام ؛ نشر مكتبة وهبة ؛ بالقاهرة ؛ ط ١ سنة ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م ؛ وكتاب الدكتور مصطفى السباعي : الاستشراق والمستشرقون ؛ نشر المكتب الإسلامي ؛ بدمشق ؛ ط ٢ سنة ١٣٩٩هـ .

(٣) من منشورات المكتبة العصرية ؛ بيروت سنة ١٩٨٣م .

كمال أتاتورك الخلافة سنة ١٩٢٤م . وكانت البلاد المسلمة قد تساقطت تحت نير الاستعمار ، كما بينا في صدر هذا الفصل . وبعد جهاد مرير نالت البلاد المسلمة استقلالها ، وخرجت جيوش الاحتلال من أراضيها ، ولكن بعد أن رسَّخت الحدود الفاصلة بينها ، بحيث صار التفكك السياسي قريناً بالاستقلال . ونشبت الخلافات على الحدود بين الدول الحديثة ، ثم تطورت إلى قتال بين العراق وإيران ، وبين العراق والكويت ، وبين اليمن الجنوبي واليمن الشمالي ، وبين مصر والسودان ، ومصر وليبيا ، وتشاد وليبيا ، والمغرب والجزائر ، . . إلخ . ولا تزال مظاهر التفكك السياسي ملحوظة ، على الرغم من كل المحاولات لرأب الصدع من جانب الجامعة العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي ولا تزال المفاوضات تجري لتحديد الحدود ، فتنجح مرة ، وتخفق مرات .

● وتعاني الأقليات المسلمة عناءً مريراً ، دون أن تجد عوناً من الدول المسلمة . فالمسلمون الكشميريون ـ حوالي عشرة ملايين نسمة ـ يجاهدون للاستقلال والتحرر من الاحتلال الهندي . والمسلمون الشيشان يقاتلون الاستعمار الروسي . والمسلمون في تركستان واقعون تحت الاحتلال الصيني والروسي . وتعاني الجاليات المسلمة في الغرب بعد ٢٠٠١/٩/١١م .

● وشعب فلسطين يقف في وجه الاحتلال الصهيوني الاستيطاني المدعوم عسكرياً ومالياً وسياسياً من الولايات المتحدة الأمريكية . وهذا هو العراق يتحول إلى مستعمرة أمريكية ، ولا يعلم مستقبله إلا الله تعالى . وكذلك أفغانستان . ويعجز المسلمون عن إرسال بندقية إلى غزة أو رام الله .

● أجل ، أدَّى تفكك الأمة المسلمة إلى العجز عن مساعدة الأقليات المسلمة ، لا لأنها لا تملك المساعدات ، ولكن لأنها لا تستطيع أن تغضب أمريكا وروسيا والصين والهند . والدليل على ذلك أن أفغانستان تلقَّتْ مساعدات مالية وعسكرية إسلامية هائلة حين كانت تقاتل ضد الاتحاد السوفيتي الشيوعي ، بمباركة أمريكا ومشاركتها .

● وبعد حادثة ٢٠٠١/٩/١١ الإرهابية ، لم تعد البلاد المسلمة تتطلع إلى أبعد من نفي تهمة الإرهاب عن نفسها . وكل مساعدة للمجاهدين الفلسطينيين تعتبر إرهاباً بمعايير أمريكا وأوربا ، فمن يجرؤ على مساعدتهم؟

● وتحت وطأة هذه التغيرات الهائلة يجب أن يعمل الدعاة المسلمون بالحكمة والموعظة الحسنة ، والجدال بالتي هي أحسن ، و﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ وبأحدث وسائل الاتصال والتأثير . وتلك مهمة عسيرة ، لكنها ليست مستحيلة .

● ولابد من القضاء على التفكك السياسي الداخلي ، بتأسيس الوحدة الوطنية ، وعلى التفكك القومي ، بتدعيم مؤسسات الجامعة العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي . والكلمة الإسلامية على لسان الداعية أو بقلمه لها مفعولها في حشد الجماهير لتحقيق غاياتنا الإسلامية النبيلة في الوحدة السياسية القوية التي يعمل لها العالم ألف حساب .

* * *